الإلفات إلى ما في خبر (قُطم الخلق عن معرفتها) من تهافت

بسم الله خير الأسماء الحسنى المتكاثرة والحمد لله على نعمه المتواترة

والصلاة والسلام على نبيّنا والأنبياء والأصفياء البررة وعترته الطاهرة.

وبعد، في ذكرى مولاتنا الزهراء المرضيّة الراضية عليها سلام الله والتحيات الزاكية، كثيراً ما يهتمّ شيعة ومحبّي أهل البيت وفقّهم الله لمرضاته بالتركيز في الأيّام الفاطميّة على مناقبيّة السيّدة فاطمة عليها السلام ومأساتها الأليمة.

وفي هذه الأجواء تتداخل العاطفة مع الموروثات فيحصل أحياناً عدم التدقيق فيما يُطرح ويتدفّق، ويحدث التساهل في النقل وسرعة التصديق، من دون الالتفات إلى معاني المنقولات والوقوف على دقائق المعطيات.
ولا يخفى عليكم أعزّتي أنّه لا يحقّ لنا إدخال إضافة من عنديّاتنا على أصول المعتقد وفروع الإيمان، وكذلك لا يسمح لنا بقذف شيء ثابت من أركانهما وبتر شيء مؤكّد من أُسسهما، ففي مثل هكذا مبادئ رصينة وتعاليم حقّة يكون التعامل بالقاعدة المتبنّاة وبالضابطة المنتقاة: أنّه لا مغالاة ولا تقصير ولا إفراط ولا تفريط.
المتحصّل ممّا سلف: أنّ الزيادة في العقيدة تماثل النقيصة، وربّما هي أدهى من حيث التأثير والفاعليّة، كما قد يُستشمّ من مواقف المعصوم الشديدة الصادرة بحقّ الغلاة والوضّاعين الكذبة، وما ذلك إلّا لما لها من مردود سيء وانعكاس رديء على الأمّة، حيث إنّ التهاون بنقل الوثائق وضخّ المفاهيم غير المحكمة وتسويق المعطيات المشوّشة وتقبّل مرويّات

العقائد من دون تحرّي وتدبّر وتحقّق يُربك أكثر ممّا يُقنِع ويُسيء أكثر ممّا يَنفع، وهو بعد عامل مساعد على تشوّيه الصور الذهنيّة التي يحملها المستمع عن الشيء المتكلّم عنه، وعنصر إضافي في تخلخل عقيدة المتلقّي في الشيء الذي يعتقد به والمبدأ الذي يميل إليه.

بل عادة ما يقود الخطأ الدرائي إلى الخطأ العقدي، كما هو واضح، فآفة الأخبار رواتها، وداؤها عدم رعاية متنها.

ومن جميل ما جاء في هذا الصدد معتبر طلحة بن زيد قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ رواة الكتاب كثير، وإنّ رعاته قليل، وكم من مستنصح للحديث مستغش للكتاب، فالعلماء يحزنهم ترك الرعاية، والجهّال يحزنهم حفظ الرواية، فراع يرعى حياته، وراع يرعى هلكته، فعند ذلك اختلف الراعيان، و تغاير الفريقان).

أصول الكافي للشيخ محمّد بن يعقوب الكليني:49/1/كتاب فضل العلم/باب النوادر/6، روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه للشيخ محمّد تقي المجلسي:174/12، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام للشيخ هادي النجفي:230/4 و:288/9.

وبعض هذا جاء في رسالة الإمام أبي جعفر عليه السلام لسعد الخير (سعد بن عبد الملك الأموي) وفيها ما هو أنسب من معتبر طلحة، قال عليه السلام له: (وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهّال يعجبهم حفظهم والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية، وكان من نبذهم الكتاب أن ولّوه الّذين لا يعلمون فأوردوهم الهوى، وأصدروهم إلى الرّدى، وغيّروا عرى الدّين).

روضة الكافي:53/8/ح16، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول للشيخ محمّد باقر المجلسي:112/25.

هذا، ومن المعلوم عند الطبقة الناضجة أنّ القناعات العقديّة مؤثّرة بشكل كبير على ذهن القارئ وتوجّهاته ونمطيّة منهجه ونوع طموحاته وتحديد مساراته، وبالتالي فهي تجعل من معلوماته ومخزونه الفكري أداة ذات حدّين: إمّا أن تكون أداة إخفاق وتردّي، أو تكون أداة ارتقاء وتوعّي.

ومن هنا نفهم لِمَ جاء في المروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يُحسنون من رواياتهم عنّا).

معرفة الناقلين عن الأئمّة الصادقين المشتهر برجال الكشي للشيخ محمّد الكشي:11.

ونحوه أخرجه الشيخ النعماني في غيبته، وفيه: (اعرفوا منازل شيعتنا عندنا على قدر روايتهم عنّا وفهمهم منّا).

الغيبة للشيخ محمّد بن إبراهيم النعماني:29.

وجملة القول في ذلك أنّ الفِهم الدقيق من قنوات المعصومين عليهم السلام والالتقاط الحسن من رواياتهم له دور مهمّ في نضج خيارات المتشيّع لهم واستقامة خطواته وضبط مسيره ووضعه على المحجّة القويمة والجادّة المستقيمة.

ما أودّ عرضه هنا هو خبر من الأخبار العقائديّة المتداول في المجالس الولائيّة والذي لم يُدرس بعناية ولم يُحقّق بكفاية، ويُمرّ عليه الأخوة الأعزّة مرور الكرام دون التأملّ التامّ. والخبر هو ما أخرجه الشيخ فرات الكوفي في تفسيره بسنده عن محمّد بن القاسم بن عبيد معنعناً عن الإمام أبي عبد الله الصادق في تفسير سورة القدر، قال عليه السلام: (﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ الليلة فاطمة، والقدر الله، فمن عرف فاطمة حقّ معرفتها فقد أدرك ليلة القدر، وإنّما سمّيت فاطمة لأنّ الخلق فُطموا عن معرفتها- في نسخة فُطموا من معرفتها-، وقوله: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر؟! ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ يعني خير من ألف مؤمن وهي أمّ المؤمنين، ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها﴾ والملائكة: المؤمنون الذين يملكون علم آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلم، والروح القدس: هي فاطمة عليها السلام ﴿بإذن ربّهم من كلّ أمر سلام هي حتّى مطلع الفجر﴾ يعني: حتّى يخرج القائم عليه السلام).

تفسير فرات الكوفي للشيخ فرات بن إبراهيم الكوفي:581-582/747/2.

أفتح باب النقاش في الرواية من باب التدقيق لا تعريضاً بأهل الجمع وعدم التحقيق.

وقبل الخوض في الموضوع فإنّي تجنّبت الحديث عن إثبات أو عدم إثبات القضايا العقديّة بالخبر الواحد، وهل ذلك مختصّ بأصول المسائل العقديّة أم يشمل غيرها؟ لكوني أعتقد أنّ ذلك له مجال آخر ليس هذا محلّه.

أشرع الآن بالتعرّض لسند الرواية ومتنها ودلالتها:

بحث في العقيدة

أمّا من حيث درجة الحُكم على السند فالرواية موهونة السند ضعيفة بالإرسال، غير متعاضدة بروايات معتبرة تفضي إلى تقوية سندها، ولم تُذكر في كتب معتمدة كالكتب الأربعة وغيرها، وأعني بغيرها بعض مؤلّفات الشيخ الصدوق والشيخ المفيد والشيخ الطوسي ومن على شاكلتهم.
هذا فضلاً عن الكلام في المفسّر فرات الكوفي من قبل علماء الرجال، حيث أهمله البعض من غير مدح ولا قدح، ورماه أحدهم بالانحراف لتصورّه أنّه يتبنّى عقيدة باطلة شنيعة.
وأيّاً ما يكن فإنّي أميل إلى قبول رواياته المتوافقة وفاقاً لبعض علماء الرجال.
وأمّا من حيث المتن فهي مضطربة، غير سالمة من الإشكال في الدلالة.
فتعالوا معنا أيّها القرّاء لنغربل الكلمات ونفرز الدلالات.
وسنقوم بتقسيم مفردات النصّ وفقرات المتن إلى مقاطع كي ترسخ المعلومة عند المطالع.
نحن والنصّ الذي نقله الشيخ فرات الكوفي في تفسيره:
المقطع الأوّل: قوله عليه السلام : (الليلة فاطمة).
هذا المقطع يحتاج إلى نقاش من جهتين:
الجهة الأولى: هذا التفسير أو الشرح لهذا المقطع إن لم نحمله على الاتّجاه التأويلي وأبقيناه على معناه الظاهر فسوف لا يستقيم مع الفقرة التي سبقته والتي تتحدّث عن الحكم الإلهي القاضي بإنزال (القرآن) الكريم (في) تلك الليلة المباركة.
على أنّ القبول بالمعنى الظاهري بلا وجود مناسبة بين المفردات سيربك الجملة ويشوّش مفهومها، ثمّ إنّ هناك عدّة شواهد نصوصيّة تتحدّث عن (ليلة القدر) لا يتوافق جوهرها مع المعنى الظاهري، وتدفعنا بشدّة عن قبول جهته، بل قد تتصادم معه، ننتقي إليكم باقة منها ونضعها بين أيديكم:
منها: الخبر المروي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: (لقد خلق الله جلّ ذكره ليلة القدر أوّل ما خلق الدّنيا، ولقد خلق فيها أوّل نبيّ يكون، وأوّل وصيّ يكون، ولقد قضى أن يكون في كلّ سنة ليلة يهبط فيها بتفسير الأمور

إلى مثلها من السنة المقبلة، من جحد ذلك فقد ردّ على الله عزّ وجلّ علمه، إلى آخر ما جاء في الخبر).

الكافي:250/1/باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر/7، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة للسيّد عليّ الحسيني الأسترآبادي:14/825/2.

ومنها: ما روي عن أبي حمزة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (لمّا قبض أمير المؤمنين عليه السلام: قام الحسن بن عليّ في مسجد الكوفة فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ صلّى الله عليه وآله، ثمّ قال: أيّها النّاس إنّه قد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون و لا يدركه الآخرون، والله لقد قبض في ليلة التي قبض فيها وصيّ موسى يوشع بن نون، والليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم، والليلة التي نزل فيها القرآن، الخبر).

تفسير نور الثقلين للشيخ عبد علي بن جمعة الحويزي:51/624/5.

ومنها: ما روي عن حمران أنّه سأل أبا جعفر عليه السلام- في حديث - قال: (ليلة القدر وهي في كلّ سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلّا في ليلة القدر).

تفسير نور الثقلين:56/625/5.

ومنها: ما روي عن أبي بصير عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام، قال: (نزلت التوراة في ستّ مضت من شهر رمضان، ونزل الإنجيل في اثنتي عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، ونزل الزبور في ليلة ثماني عشرة مضت من شهر رمضان، ونزل القرآن في ليلة القدر).

البرهان في تفسير القرآن للسيّد هاشم بن سليمان البحراني:15/711-710/5.

ومنها: ما رويّ عن حسّان بن مهران عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (سألته عن ليلة القدر؟ قال: التمسها ليلة إحدى وعشرين أو ليلة ثلاث وعشرين).

تفسير نور الثقلين:57/625/5.

يظهر ممّا تقدّم أنّ ليلة القدر هنا (فترة زمنية أُنزل فيها القرآن الكريم) لا ترتبط، بحسب الظاهر، بما ورد في تفسير فرات، وهذا الظاهر هو المطمئّن إليه، لأنّ الخبر، في هذه الجهة، مسوق لبيان هذه الحقيقة ولسان الروايات التي نقلناها يميل إلى هذه الحيثيّة.

الجهة الثانية: إذا استطعنا تفادي كلمة (أنزلناه) ولو بتكلّف، وحملنا تفسير المقطع على الاتّجاه التأويلي، ولو بنوع من التجوّز، فيمكن حينئذٍ هضمه، وإلّا يبقى في النفس شيء حيال ذلك.

وقد أخذ الشيخ المجلسي بهذا الوجه التأويلي ووجّه المقطع بشكل باطني، قال: «أمّا تأويله عليه السلام ليلة القدر بفاطمة عليها السلام فهذا بطن من بطون الآية، وتشبيهها بالليلة إمّا لسترها وعفافها، أو لما يغشاها من ظلمات الظلم والجور».

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار للشيخ محمّد باقر المجلسي:25/99/ب3.

وللعلم فإنّ معنى التأويل عند أرباب الشريعة هو: صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها ويطابق الكتاب والسنّة.

ومعنى التفسير هو: علم نزول الآية وشأنها وقصّتها والأسباب التي نزلت فيها.

وبتعبير آخر هو: الكشف عن الإبهام في الجمل الفرقانيّة وإزالة الخفاء عن دلالة الكلمات القرآنيّة وتوضيح مقاصدها.

التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب للشيخ محمّد هادي معرفة:21/1.

ولا يعزب عنكم أنّ هناك تعاريف أُخرى لمسالك أُخرى.

وكيف كان فإنّ الذي نودّ التنبيه عليه هو: أنّ التأويل لا يعني ترجيح طرف على طرف كيفما اتّفق ولا يقصد منه التقاط ما رواه المتّهمون بالغلوّ بسهولة ورفق، وإنّما يلزم أن يكون التأويل خاضعاً لضوابط ومحدّدات ومعايير، وقد يترجّح حينما يُلمس منه وجود رعاية مناسبة وجهة اشتراك بينه وبين التفسير وجهة تطابق بينهما بوجه من الوجوه، بحيث يعطي القارئ إيحاء بوجود شعاع تجانس وخيط التئام بينهما.

إنّ ضابطة التأويل الصحيح بيّنها لنا الشيخ محمّد هادي معرفة بما يلي: «أوّلاً: رعاية المناسبة القريبة بين ظهر الكلام وبطنه، أي: بين الدلالة الظاهرة وهذه الدلالة الباطنة للكلام، فلا تكون أجنبيّة، لا مناسبة بينها وبين اللفظ أبداً. فإذا كان التأويل- كما عرفناه- هو المفهوم العام المنتزع من فحوى الكلام، كان لا بدّ من أنّ هناك مناسبة لفظيّة أو معنويّة استدعت هذا الانتزاع.

ثمّ قال: ثانياً: مراعاة النظم والدقّة في إلغاء الخصوصيّات المكتنفة بالكلام، ليخلص صفوه ويجلو لبابه في مفهومه العامّ...ولتكون العبرة بعموم الفحوى المستفاد، لا بخصوص العنوان الوارد في لسان الدليل».

التفسير والمفسّرون:1/26-29.

والحقيقة أنّ من يمعن النظر فيما رواه الفريقان من إثباتات تتحدّث عن أنّ آيات القرآن بأنّ لها ظهر وبطن.

راجع: أصول التفسير والتأويل للسيّد كمال الحيدري:353-356.

يُدرك أنّ الأخذ بالمنهج التأويلي هنا يمكن أن يُقبل إذا تمكّنا من تلافي كلمة (أنزلناه)، وبالتالي فلو لم يحصل الاطمئنان بإرادة المعنى الباطني للمفردة المتناولة المستلهمة من النصوص فلا أقّل من أنّه مُحتمل، والله العالم.

ولتقريب التوجيه الذي ذكره المجلسي نسوق إليكم ما جاء في خبر يعقوب بن جعفر عن الإمام الكاظم عليه السلام: (فقال النصراني إنّي أسألك أصلحك اللّه، قال: سل. قال: أخبرني عن كتاب اللّه الذي أنزل على محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ونطق به ثمّ وصفه بما وصفه به فقال: ﴿حم وَالْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ سورة الدخان:1-4، ما تفسيرها في الباطن؟

فقال: أمّا ﴿حم﴾ فهو محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو في كتاب هود الذي أنزل عليه وهو منقوص الحروف.

وأمّا ﴿الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ » فهو أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام.

وأمّا (الليلة) ففاطمة عليه السّلام.

وأمّا قوله: ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يقول: يخرج منها خير كثير فرجل حكيم ورجل حكيم ورجل حكيم، الخبر).

الكافي:1/479/كتاب/كتاب الحجّة/باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام/4.

قال الشيخ محمّد صالح المازندراني موضّحاً: «قوله: (وهو منقوص الحروف) حيث حذف أوّله وآخره واقتصر على الوسط. قوله: (وأمّا الكتاب المبين فهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام سُمّي به لأنّه مكتوب في زبر الأولين وأخبر به جميع الأنبياء والمرسلين. قوله: (وأما الليلة ففاطمة صلوات الله عليها) سُمّيت بها على الاتساع والتجوز، لأنّ الزوج يأوي إلى الزوجة في الليل غالباً.

قوله: (يخرج منها خير كثير) وهو الأئمّة عليهم السلام، ويجوز في الخير التشديد».

شرح أصول الكافي للشيخ محمّد صالح المازندراني:7/260-261.

وكتب الشيخ المجلسي مبيّناً: «(وهو في كتاب هود) أي: ذكر النبيّ صلّى الله عليه وآله في ذلك الكتاب بحكم (وهو منقوص الحروف) أي: نقص منه حرفان، الميم الأوّل والدّال، وقد مرّ وجه التعبير عن أمير المؤمنين عليه السلام بالكتاب والقرآن، والتعبير عن فاطمة عليها السلام بالليلة باعتبار عفّتها ومستوريّتها عن الخلائق صورة ومعنى (يقول: يخرج منها) بلا واسطة وبها (خير) بالتخفيف أو بالتشديد، أي: ينعقد فيها إمامان يخرج من أحدهما أئمّة كثيرة.

ثمّ يتابع المجلسي حديثه فيقول: وهذا من بطون الآية الكريمة اللازمة لظهرها، فدلالتها عليه بالالتزام، إذ نزول القرآن في ليلة القدر إنّما هو لهداية الخلق وعلمهم بشرائع الدين واستقامتهم على الحقّ قولاً وفعلاً إلى يوم القيامة، ولا يكون ذلك إلّا بوجود إمام في كلّ عصر يعلم جميع أحكام الدين وغيرها من ظهر القرآن وبطنه، وإنّما تحقّق ذلك بنصب أمير المؤمنين عليه السلام وجعله محلاً لجميع علوم القرآن ليصير مصداقاً للكتاب المبين، ومزاوجته مع سيّدة نساء العالمين ليخرج منهما الأئمّة الحافظين للدين المتين إلى يوم الدين، فظهر القرآن وبطنه متطابقان ومتلازمان».

مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول للشيخ محمّد باقر المجلسي:6/48. ومثله في بحار الأنوار:48/90.

المقطع الثاني: قوله عليه السلام: ﴿القَدْر﴾ (الله).

هذا المعنى يجعل الجملة لا تنتظم مع اللفظ المتقدّم، كما أنّ من يراجع المصادر الحديثيّة يجد أنّ هذا اللفظ (القَدْر) لم يرد هكذا لا في أسماء الله التسعة والتسعين اسماً.

راجع: كتاب التوحيد للشيخ محمّد بن علي بن بابويه القمّي الملقّب بالصدوق:194/ب8/29، وعدّة الداعي للشيخ أحمد بن فهد الحلي:299.

ولا في غيرها من الأسماء الأخرى التي تليق بجلاله وتطلق على ذاته تعالى وتقدّس شأنه.

وعن ذلك دوّن الشيخ محمّد باقر الميانجي التالي: «المستفاد من الروايات الشريفة الكثيرة أنّ الله تعالى هو الذي سمّى نفسه بالأسماء الحسنى من قبله. والواضع هو الله سبحانه، وقد اختارها لنفسه وسمّى بها نفسه».

توحيد الإماميّة:61.

وقد ذكر الميانجي في موضع آخر من كتابه بأنّ أسماء الله توقيفيّة.

راجع: توحيد الإماميّة:72.

المقطع الثالث: قوله عليه السلام: (من عرف فاطمة حقّ معرفتها فقد أدرك ليلة القدر).

يدلّ هذا المقطع، بحسب نظر الشيخ علي آل محسن، على أحد معنيين: «الأول: أنّ من عرف قدر فاطمة آتاه الله سبحانه وتعالى من الأجر والثواب ما يعطيه لمن أدرك ليلة القدر، فقامها وعبد الله فيها، فحصل على ثواب العبادة الصحيحة في تلك الليلة المباركة التي نصّ الكتاب العزيز على أن العبادة فيها خير من ألف شهر من العبادة في غيرها.

الثاني: أنّ من آثار معرفة فاطمة عليها السلام ومن بركاتها أدراك ليلة القدر، فإنّ كلّ عبد عرف قدرها عليها السلام فإنّ الله عزّ وجلّ يوفّقه لكي يدرك ليلة القدر».

راجع: موقع الشيخ علي آل محسن على شبكة الانترنت/مقال بعنوان: معرفة قدر السيّدة فاطمة الزهراء عليه السلام.

في الحقيقة أنّ هذا المقطع يُعطينا إيحاء بأنّ هناك إمكانيّة أن يعرف المؤمن مولاتنا فاطمة عليها السلام حقّ معرفتها، وبالتالي فإنّ فيه حثّاً على معرفتها كونه أحد الطرق لإدراك ليلة القدر كما نفهم من بقيّة الآثار. هذا، ومعرفة مولاتنا حقّ المعرفة ليست بأعظم من معرفة الخالق البارئ سبحانه وتعالى حقّ معرفته، فقد ورد في بعض النصوص المرويّة عن الإمام عليّ عليه السلام في وصف أصحاب الإمام المهديّ (كنوز الطالقان) رضي الله عنه أنّهم (عرفوا الله حقّ معرفته).

راجع: منتخب الأنوار المضيئة للسيّد عليّ عبد الكريم النيلي:84-85/ف4، البيان في أخبار صاحب الزمان للشيخ محمّد بن يوسف الكنجي الشافعي:106/ب5، ينابيع المودّة لذوي القربى للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي:298/3/ب12/98.

وقد أشار الشيخ الصدوق إلى أنّ معرفة الله حقّ المعرفة تتحقّق عن طريق تعاليم الحجج عليهم السلام.

راجع: التوحيد للشيخ الصدوق:290.

وقال الشيخ علي آل محسن: «لا شكّ في أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام قد أوضحوا للنّاس ما هو قدر فاطمة، فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله بيّن للنّاس من هي فاطمة عليها السلام، وكذلك صنع الأئمّة الأطهار عليهم السلام. فإن الأحاديث المتواترة التي صدرت عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعن أئمّة أهل البيت عليهم السلام كافية في إيضاح كثير من مقامات السيّدة فاطمة عليها السلام وكاشفة عن جملة من فضائلها...ومن جملة تلك المزايا أنها عليها السلام معصومة من الزلل والخطأ والنسيان والسهو والغفلة والجهل، وأنّها حجّة من حجج الله تعالى، وأنّ الله يرضى لرضاها ويغضب لغضبها، وأنّ من آذها فقد آذى الله ورسوله، وغير ذلك ممّا عُلم ثبوته لها من الفضائل المهمّة التي دلت عليها أحاديث كثيرة متواترة أو مشهورة».

راجع: مقال الشيخ علي آل محسن الآنف الذكر على موقعه.

والذي يشهد على قبول هذا المعنى ويساعد عليه عدّة نصوص نذكر لكم بعضها:

منها: ما روي عن محمّد بن سنان قال: (كنت عند أبي جعفر عليه السلام فذكرت اختلاف الشيعة فقال: إنّ الله لم يزل فرداً متفرّداً في الوحدانية، ثمّ خلق محمّداً وعليّاً وفاطمة عليهم السلام فمكثوا ألف دهر، ثمّ خلق الأشياء وأشهدهم خلقها وأجرى عليها طاعتهم وجعل فيهم ما شاء، وفوّض أمر الأشياء إليهم في الحكم والتصرّف والإرشاد والأمر والنهي في الخلق، لأنّهم الولاة، فلهم الأمر والولاية والهداية، فهم أبوابه ونوّابه وحجّابه، يحلّلون ما شاء ويحرّمون ما شاء ولا يفعلون إلّا ما شاء، عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون.

فهذه الديانة التي من تقدّمها غرق في بحر الإفراط، ومن نقصهم عن هذه المراتب التي رتّبهم الله فيها زهق في برّ التفريط، ولم يوف آل محمّد حقّهم فيما يجب على المؤمن من معرفتهم، ثمّ قال: خذها يا محمّد فإنّها من مخزون العلم ومكنونه).

البحار:25/339/ب21/10.

ويُستفاد من الخبر أنّ من لم يتقدّم ولم يتأخّر عن تلك المعرفة فهو ممّن وفى لآل محمّد عليهم السلام بمعرفة حقّهم وأدّى ما عليه، وبالتالي فإنّه يتقاطع مع الخبر السقيم المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام المشتهر بحديث المعرفة بالنورانيّة.

ومنها: ما روي عن يونس بن ظبيان عن الإمام الصادق عليه السلام- في حديث نأخذ منه موضع الحاجة- قال: (الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت، وأنّ العلماء ورثوا العلم بالطلب، وأنّ الصديقين ورثوا الصدق بالخشوع وطول العبادة، فمن أخذه بهذه السيرة إمّا أن يسفل وإمّا أن يرفع، وأكثرهم الذي يسفل ولا يرفع إذا لم يرع حقّ الله ولم يعمل بما أُمر به، فهذه صفة من لم يعرف الله حقّ معرفته فلم يحبّه حقّ محبته، فلا يغرّنك صلاتهم وصيامهم ورواياتهم وعلومهم...يا يونس! إذا أردت العلم الصحيح فعندنا أهل البيت، فإنّا ورثنا وأوتينا شرع الحكمة وفصل الخطاب).

كفاية الأثر في النصّوص على الأئمّة الإثني عشر للشيخ علي بن محمّد الخزّاز القمّي:257-258، البحار:36/404/ب15/46.

ومنها: ما في كتاب الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام قال: (وأروي: أنّ المعرفة التصديق والتسليم والإخلاص في السرّ والعلانية. وأروي: أنّ حقّ المعرفة: أن تطيع ولا تعصي، وتشكر ولا تكفر).

البحار:3/13-14/ب1/32-34.

ومنها: ما يشير إليه المروي عن هشام بن سالم قال: (كنت عند الصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام إذ دخل عليه معاوية بن وهب وعبد الملك بن أعين، فقال له معاوية بن وهب: يا ابن رسول الله ما تقول في الخبر الذي روى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم رأى ربّه على أيّ صورة رآه؟

وعن الحديث الذي رووه أنّ المؤمنين يرون ربّهم في الجنّة على أيّ صورة يرونه؟

فتبسّم عليه السلام ثمّ قال: يا فلان! ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه لا يعرف الله حقّ معرفته. ثمّ قال عليه السلام: يا معاوية! إنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم لم ير ربّه تبارك وتعالى بمشاهدة العيان، وأنّ الرؤية على وجهين:

رؤية القلب ورؤية البصر، فمن عنى برؤية القلب فهو مصيب، ومن عنى برؤية البصر فقد كفر بالله وبآياته، لقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من شبّه الله بخلقه فقد كفر، الحديث).

كفاية الأثر:260، البحار:36/406/ب16/46.

لا بدّ أن نعلم أنّ الكفر درجات، وليس كلّ كفر ورد في بعض النصوص يُراد به المروق من الدّين، وإنّما يراد ببعضه الانحراف والخطأ والإثم وما إلى ذلك. وفي الموروث الروائي يوجد ميزان شرعيّ وبواسطته يتمّ التفريق بين الجاهل والعالم، ودرجات الإيمان بين النّاس وقابلياتهم، وكذلك بين القاصر والمقصّر والمتعمّد، فهناك ضعاف العقول والمستضعفون والمرجون لأمر الرحمن، وبالتالي فلا يصحّ التسرّع باتّهام الآخرين بالكفر الأعظم ورجمهم بعبارات الخروج من الدّين الخاتم.

على أيّ حال لاحظوا معي أيّها الأحبّة كيف ترتبط المعرفة الحقّة بعدم التشبيه والتجسيم.

وكما أنّ معرفتها عليها السلام حقّ المعرفة غير مُغلقة أمام فهم الموالين بعد ما عرّف المعصوم نوعها لهم وتبدّت لنا خصائصها وجنباتها، فكذلك معرفة أهل البيت حقّ المعرفة صلوات الله عليه أجمعين غير ممتنعة، بل هي مبذولة لمحبّيهم ومريديهم، وأضع الوثائق المعبرّة عن ذلك بين أيديكم:

الأولى: روي عن سلمان الفارسيّ رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم- في حديث نأخذ ما يتعلّق بموضوعنا- قال: (وخلق منّي ومن عليّ وفاطمة: الحسن، ودعاه فأطاعه، وخلق منّي ومن عليّ وفاطمة: الحسين، فدعاه فأطاعه. ثمّ سمّانا بخمسة أسماء من أسمائه...ثمّ خلق منّا ومن نور الحسين تسعة أئمّة، فدعاهم فأطاعوه قبل أن يخلق سماء مبنيّة وأرضاً مدحيّة، ولا ملكاً ولا بشراً، وكنّا نوراً نسبّح الله ونسمع له ونطيع. قال سلمان: فقلت يا رسول الله! بأبي أنت وأمي فما لمن عرف هؤلاء؟

فقال: يا سلمان! من عرفهم حقّ معرفتهم واقتدى بهم ووالى وليّهم وتبرأ من عدوّهم، فهو والله منّا، يرد حيث نرد ويسكن حيث نسكن...ثمّ قال: يا

سلمان! إنّك مدركه- أي يدرك الإمام المهديّ في الرجعة- ومن كان مثلك، ومن تولّاه بحقيقة المعرفة. قال سلمان: فشكرت الله كثيراً، الحديث).

دلائل الإمامة للشيخ محمّد بن جرير الطبري الآملي:448-449/424/28.

يستوحى من هذا الحديث أنّ هناك من يتولّى الإمام الحجّة عليه السلام بحقيقة المعرفة. ولا يغيب عن بالكم أنّ هذه المعرفة والبصائر تتأتى للموالي عن طريق مصادر المعرفة المعصوميّة الحقّة بعد توفيق الله سبحانه وتعالى للعبد الموالي ومعونته له.

ومن الجليّ أنّ مراتب المعرفة تتفاوت من شخص إلى آخر، كما أنّ طبقات المعرفة متدرّجة، وكلّ يستقي بحسب ما أعطاه الله عزّ وجلّ من الفهم والعقل وبمقدار جهد الشخص في التخلّص من العلائق وسلوكه طريق طلب التفقّه وسعيه في مدارج التحقيق في المعارف الإلهيّة.

وسنستمع إلى روايتين معتبرتين (معتبر ضريس ومعتبر زرارة) يصبّ مضمونهما في هذا المسار المعرفي الخصب ويتعلّق بهذا الجانب.

الثانية: معتبر عن ضريس الكناني قال: (سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول- وعنده أناس من أصحابه-: عجبت من قوم يتولّوننا ويجعلوننا أئمّة ويصفون أن طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ يكسرون حجّتهم ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم، فينقصونا حقّنا ويعيبون ذلك على من أعطاه الله برهان حقّ معرفتنا والتسليم لأمرنا. أترون أنّ الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثمّ يخفى عنهم أخبار السّماوات والأرض ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم ممّا فيه قوام دينهم؟! إلى آخر ما جاء في الرواية).

الكافي:1/261-262/كتاب الحجّة/باب أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون/4، مرآة العقول:3/131، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام:6/343. ومثله في بصائر الدرجات للشيخ محمّد بن الحسن الصفّار:1/144/ب3/5، مختصر بصائر الدرجات للشيخ حسن بن سليمان الحلّي:120-121.

الثالثة: معتبر زرارة قال: (قلت لأبي جعفر عليه السلام: أخبرني عن معرفة الإمام منكم واجبة على جميع الخلق؟ فقال: إنّ الله عزّ وجلّ بعث محمداً صلّى الله عليه وآله إلى النّاس أجمعين رسولاً و حجّة لله على جميع خلقه في أرضه، فمن آمن بالله وبمحمّد رسول الله واتّبعه وصدّقه فإنّ معرفة

الإمام منّا واجبة عليه، ومن لم يؤمن بالله وبرسوله ولم يتّبعه ولم يصدّقه ويعرف حقّهما فكيف يجب عليه معرفة الإمام وهو لا يؤمن بالله ورسوله ويعرف حقّهما؟!

قال: قلت: فما تقول فيمن يؤمن بالله ورسوله ويصدّق رسوله في جميع ما أنزل الله، يجب على أولئك حقّ معرفتكم؟

قال: نعم، أليس هؤلاء يعرفون فلاناً وفلاناً، قلت: بلى، قال: أترى أنّ الله هو الذي أوقع في قلوبهم معرفة هؤلاء؟ والله ما أوقع ذلك في قلوبهم إلّا الشيطان، لا والله ما أَلهَمَ المؤمنين حقّنا إلّا الله عزّ وجلّ).

الكافي:181/1/باب معرفة الإمام والردّ إليه/3، مرآة العقول:302/2، مستدرك سفينة البحار للشيخ عليّ النمازي الشاهرودي:152/9.

وفي هذا الاتّجاه روي في خبر بما معناه أنّه لا ثواب لمن كان جاهلاً بحقّهم عليهم السلام.

راجع: كتاب ثواب الأعمال وعقاب الأعمال للشيخ محمّد بن عليّ القمّي المشتهر بالصدوق:204/2/باب من جهل حقّ أهل البيت عليهم السلام/1.

والمفهوم من هذا أنّ غير الجاهل بحقّ المعصومين عليهم السلام يستحقّ الثواب.

وكما أسلفنا فإنّ الجهل على أنواع، والإيمان درجات، والعقول متفاوتة في الإدراك والاستعداد والفهم شدّة وضعفاً، وأنّ البارئ العادل الحكيم الرؤوف الرحيم، لا يحاسب كلّ خلقه بحساب واحد ولا بمستوى واحد، وإليه الإشارة بما جاء خبر زياد بن المنذر الجارودي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: (إنّما يُداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدّنيا).

المحاسن للشيخ أحمد بن محمّد البرقي:195/1/كتاب مصابيح الظُلم/ب1 العقل/16، الكافي:11/1/كتاب العقل والجهل/7. وقوّى سنده في روضة المتّقين:244/12.

قال الشيخ محمّد محسن بن مرتضى الملقّب بالفيض الكاشاني مبيّناً: «يداقّ اللّه: من الدقة في الحساب، أي: يناقشهم فيه لمّا كانت العقول متفاوتة كمالاً ونقصاً والتكاليف إنّما تقع على مراتب العقول، فالأقوى عقلاً أشدّ تكليفاً، فيناقش في الحساب يوم القيامة مع أهل الفطانة بما لا يناقش به ضعفاء العقول».

الوافي:82/1.

ومن جهته عبّر الشيخ محمّد باقر الشريعتي الأصفهاني عن هذه الرؤية فيما استفاده من نصوص إثبات الإمامة للمعصومين وإقرار الحجّة لهم، فقال: «وجوب معرفتهم حقّ المعرفة بمقدار الإمكان، لأنّ النّاس كلّهم مكلّفون بمعرفة الإمام ومضطّرون إلى معرفته، وليسوا بمعذورين بترك معرفته».

راجع: البيان في معرفة أهل الإيمان:167.

ولعلّ ممّا يرشد إلى إمكانيّة معرفة حقّهم ما روي عن عبد الأعلى الكوفي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (ما تنبئ نبيّ قط إلّا بمعرفة حقّنا وبفضلنا عمّن سوانا).

بصائر الدرجات:94/1/ب9.

إذا اتّضح ذلك لكم، فإنّ الشيخ محمّد السند قد مال إلى تقسيم المعرفة إلى مراحل، ونحن نختلف معه في تقسيمه ونتّفق معه في أصل تفاوت المعرفة، تحدّث فضيلته عن معرفة الإمامة فقال: «فالتعريف بافتراض الطّاعة والنصّ والوصيّة تعريف للمرحلة الأولى الابتدائية، وأمّا المرحلة المتوسطة (وهي البلوغ في المعرفة) فملك الرجعة، وأمّا المرحلة الثالثة (وهي الكمال في المعرفة) فملك الجنّة».

الرجعة بين الظهور والمعاد:200. وراجع كلامه صفحة:197-198.

وبالجملة: فإنّ المستفاد من مجموع هذه النصوص المعصوميّة إمكانيّة معرفة الله جلّ ثناؤه حقّ معرفته لا كنه معرفته، لأنّ كنه معرفته تبارك وتعالى ممتنعة مغلقة.

وعليه فإنّ معرفة كنه الله جلّ جلاله تتحقّق بالإذعان بعدم معرفة كنهه سبحانه، والتسليم إلى هذا المبدأ، والكفّ عن التفكّر في هذه القضيّة، والحظر من الخوض فيها.

والذي يدعم فكرة عجز المخلوقين عن بلوغ كنهه تعالى شأنه على كلّ تقدير وفي جميع الأحوال ويكشف امتناعهم عن الإحاطة بحقيقة المهيمن ذي العزّة والجلال، ما رواه الشيخ الكليني مسنداً عن محمد بن حكيم قال: (كتب أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام إلى أبي: أنّ اللّه أعلا وأجلّ وأعظم من أن يبلغ كنه صفته، فصفوه بما وصف به نفسه، وكفّوا عمّا سوى ذلك).

الكافي:102/1/باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه/2.

وقد علّق الشيخ المازندراني على الرواية قائلاً: «قوله عليه السلام: (أنّ الله أعلا وأجلّ وأعظم من أن يبلغ كنه صفته) أي: نهايته، إذ ليس لما يعتبره العقول من كماله سبحانه نهاية يقف عندها أو حقيقتها، إذ ليس لصفته حقيقة ملتئمة من أجزاء خارجيّة أو ذهنيّة، فصفوه بما وصف به نفسه، وهو أنّه خالق كلّ شيء وله الخلق والأمر، ولا شريك له ولا نظير له، ولا والد له ولا ولد، وليس كمثله شيء، وهو السميع العليم، إلى غير ذلك ممّا ذكره في القرآن الكريم».

شرح أصول الكافي:3/210-211.

وما رواه عبد الرحيم القصير قال: (كتبت على يدي عبد الملك بن أعين إلى أبي عبد الله عليه السلام بمسائل، فيها: أخبرني عن الله عزّ وجلّ هل يوصف بالصورة وبالتخطيط؟ فإن رأيت جعلني الله فداك أن تكتب إليّ بالمذهب الصحيح من التوحيد.

فكتب عليه السلام بيدي عبد الملك بن أعين: سألت رحمك الله عن التوحيد وما ذهب إليه من قبلك، فتعالى الله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، تعالى الله عمّا يصفه الواصفون المشبّهون الله تبارك وتعالى بخلقه المفترون على الله، واعلم رحمك الله أنّ المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزّ وجلّ، فانف عن الله البطلان والتشبيه، فلا نفي ولا تشبيه، هو الله الثابت الموجود، تعالى الله عمّا يصفه الواصفون، ولا تعدُ القرآن فتضلّ بعد البيان).

التوحيد للصدوق:102/ب6 في إنّ عزّ وجلّ ليس بجسم ولا صورة/15. ومثله بأدنى تفاوت في الكافي:1/100/كتاب التوحيد/باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى/1.

إذن بهذا السرد بات من الواضح للأعزّة أنّ عدم معرفة الكنه مختصّة بالقيّوم المتعالي الحقّ خالق الخلق، ولا يمكننا اعتماد غير ذلك وتزحيف هذه المسألة إلى ساحة المعصوم وترحيلها إلى باحة المخلوق، وممّا يؤكّد ذلك خبر المفضّل الذي ورد فيه أنّ معرفة المعصوم بكنه معرفته ممكنة، وسيأتيك نصّه بعد قليل.

راجع: البحار:26/116/ب6/22.

كما أنّ من المفارقات في هذا الجانب أنّه روى أنّ المعصومين هم طريق معرفة الله سبحانه ومحالّ معرفته عزّ وجلّ، فعن سلمة بن عطا عن الإمام

الصادق عليه السلام قال: (خرج الحسين بن عليّ عليما السلام على أصحابه فقال: أيّها النّاس، إنّ الله جلّ ذِكْره ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه.
فقال له رجل: يا ابن رسول الله بأبي أنت وأمّي، فما معرفة الله؟
قال: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته).
علل الشرائع للشيخ محمّد بن عليّ بن بابويه الملقّب بالصدوق:1/44/ب1/9.

وعقّب الشيخ الصدوق على الخبر بقوله: «قال مصنّف هذا الكتاب: يعني بذلك أن يعلم أهل كلّ زمان أنّ الله هو الذي لا يُخليهم في كلّ زمان من إمام معصوم، فمن عبد ربّاً لم يقم لهم الحجّة، فإنّما عبد غير الله عزّ وجلّ».
وبيّن الشيخ المجلسي مفاد الخبر بالآتي: «يحتمل أن يكون المراد أنّ معرفة الله تعالى إنّما ينفع مع سائر العقائد التي منها معرفة الإمام، أو أنّ معرفة الله إنّما يحصل من معرفة الإمام، إذ هو السبيل إلى معرفته تعالى».
البحار:312/5.

وعن علي بن حسان عن الرضا عليه السلام قال: (سُئل أبي عن إتيان قبر الحسين عليه السلام فقال: (صلّوا في المساجد حوله ويجزئ في المواضع كلّها أن تقول: السلام على أولياء الله وأصفيائه، السلام على أمناء الله وأحبّائه، السلام على أنصار الله وخلفائه، السلام على محالّ معرفة الله، السلام على مساكن ذكر الله، السلام على مظاهري أمر الله ونهيه، السلام على الدعاة إلى الله، السلام على المستقرّين في مرضات الله، السلام على الممحّصين في طاعة الله، السلام على الأدلّاء على الله، السلام على الذين من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله ومن عرفهم فقد عرف الله ومن جهلهم فقد جهل الله ومن اعتصم بهم فقد اعتصم بالله ومن تخلّى منهم فقد تخلّى من الله، أُشهد الله أنّي سلم لمن سالمتم وحرب لمن حاربتم مؤمن بسرّكم و علانيتكم، مُفوّض في ذلك كلّه إليكم، لعن الله عدوّ آل محمّد من الجنّ والإنس و أبرأ إلى الله منهم وصلّى الله على محمّد وآله).
الكافي:4/579/أبواب الزيارات/2، عيون أخبار الرضا عليه السلام:2/304/ب1/68، من لا يحضره الفقيه:2/608/3212.
وسند الرواية معتبر في موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام:9/223. وهو الظاهر من كلام المجلسي في البحار:99/144.

وعن أبي حمزة الثمالي قال: (قال لي أبو جعفر عليه السلام: إنّما يعبد الله من يعرف الله، فأمّا من لا يعرف الله فإنّما يعبده هكذا ضلالاً. قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله عزّ وجلّ وتصديق رسوله صلّى الله عليه وآله وموالاة عليّ عليه السلام والائتمام به وبأئمّة الهدى عليهم السلام والبراءة إلى الله عزّ وجلّ من عدوهم، هكذا يعرف الله عزّ وجلّ).

الكافي:180/1/كتاب الحجّة/باب معرفة الإمام والردّ إليه/1.

وغني عن البيان فإنّ هذه البصائر هي معنى آخر ومطابق للأحاديث المستفيضة المرويّة بألفاظ متقاربة عند الطائفتين: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة، فتأمّل.

المقطع الرابع: قوله عليه السلام: (لأنّ الخلق فطموا عن معرفتها).

أوّلاً: يحتمل بعض الفضلاء أنّ المقصود بكلمة (الخلق) أوسع نطاقاً من دائرة الإنس والجنّ.

راجع: اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء للشيخ محمّد عليّ التبريزي الأنصاري:98/هامش/تحقيق السيّد هاشم الميلاني.

وذكر نحو ذلك الشيخ وحيد الخراساني، ففي تعليقه على العبارة السابقة قال: «كلّ الخلق، بمن فيهم جبرائيل وميكائيل واسرافيل، مفطومون عن معرفة فاطمة، ومقطوعون عن ذلك!».

كلمة مسجّلة لفضيلته في 27 جمادى الأولى 1439 هـ - 2018 م.

وكتب الشيخ حسن زاده آملي، بحسب ذوقه العرفاني الذي لا نعتقد به، قال: «وإنّما فطم الخلق عن كنه معرفتها، لأنّ من ليس بذي العصمة يدرك العصمة مفهوماً ولا يدركها ذوقاً...و المراد بالذوق في اصطلاح العارف باللّه ما يجده العالم على سبيل الوجدان والكشف لا البرهان و الكسب، ولا على طريق الأخذ بالإيمان والتقليد، فانّ كلّاً منها وإن كان معتبراً بحسب مرتبته لكنّه لا يلحق بمرتبة العلوم الكشفيّة، إذ ليس الخبر كالعيان».

ممد الهمم في شرح فصوص الحكم:654.

ويُلحظ في كلامه أنّه يتحدّث عن كنه معرفتها لا عن معرفتها، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإنّنا قد نقلنا خبر المفضّل الذي يصرّح بإمكان معرفة مولاتنا والأئمّة كنه معرفتهم.

ثانياً: نلاحظ أنّ هذه الفقرة (فطموا عن معرفتها) لا تتحدّث عن معرفتها حقّ المعرفة، وإنّما تتحدّث فقط عن معرفتها.

على أنّه كلمة (معرفتها) لا تخلو من أحد معنيين:

المعنى الأوّل: الكلام كان عن معرفتها (حقّ المعرفة). وإذا اعتمدنا هذا المعنى فههنا يواجهنا الإشكال المتقدّم في المقطع الثاني، ثمّ إنّه إذا كانت قضيّة معرفتها سلام الله عليها حقّ المعرفة منتفيّة من الأساس ولا سبيل إليها، فلِمَ توحي العبارة (من عرف فاطمة حقّ المعرفة) بالترغيب لبذل الجهد لنيل هذه المعرفة وأنّ على المؤمن القاصر الفهم المحدود الإدراك السعي والرقي لمعرفة من فُطم (الخلق) عن معرفتها؟!

بل كيف ورد في خبر ضعيف التصريح بإمكان معرفة كنه معرفتهم، فعن المفضّل قال: (دخلت على الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: يا مفضّل هل عرفت محمداً وعليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كنه معرفتهم؟

قلت: يا سيدي وما كنه معرفتهم؟

قال: يا مفضّل! من عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السنام الأعلى. قال: قلت: عرّفني ذلك يا سيدي، قال: يا مفضّل تعلم أنّهم علموا ما خلق الله عزّ وجلّ وذرأه وبرأه وأنّهم كلمة التقوى وخزّان السماوات والأرضين...فقلت: يا سيدي قد علمت ذلك وأقررت به وآمنت، قال: نعم يا مفضّل، نعم يا مكرّم، نعم يا محبور، نعم يا طيّب، طبت وطابت لك الجنّة ولكلّ مؤمن بها).

البحار:26/117/ب22/6، مستدرك سفينة البحار:7/180-181.

وبتفاوت طفيف في تأويل الآيات الظاهرة:2/488/4.

وحمل الشيخ آصف محسني مضمون هذا الخبر على الموجبة الجزئيّة لا الكليّة، لكونهم عليهم السلام لا يعلمون كلّ ما وما يكون تفصيلاً كما هو مقرّر في الروايات المثبتة لعلومهم.

راجع: مشرعة البحار:1/474.

عموماً هذا الخبر على فرض صحّته يُعلمنا أنّ كنه معرفة مولاتنا وأئمّتنا عليهم صلوات ربيّ وسلامه ممكنة إذا ما علم الموالي وأقرّ، فتبصّر.

المعنى الثاني: الكلام كان عن معرفتها العاديّة غير المتلبّسة بحقّ معرفتها، فنقول: إذا كانت معرفتها عليها السلام حقّ المعرفة غير ممتنعة- كما لاحظنا- فإنّ المعرفة الأبسط متيسّرة قطعاً. والمعرفة الحقّة لا تتمّ إلّا بالرجوع إلى نصوص النبيّ والعترة الطاهرة المتوفّرة ليقف الموالي على مقاماتها وفضلها ومعرفتها، وبحمد الله سبحانه فإنّ مجاميعنا الحديثيّة والمناقبيّة لا تخلو من تلك النصوص المعصوميّة المتكثّرة، فراجعها إن كان الأمر يهمّك تظفر إن شاء الله بمرادك.

ثمّ إنّ المعنى الثاني لا يتوافق ظاهراً مع خبر أمالي الطوسي الآتي والذي هو أولى بالقبول من خبر تفسير فرات الكوفي.

وقفة مع خبر الأمالي

أخرج الشيخ الطوسي في أماليه بسند ضعيف عن أبي بصير عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: (إنّ الله تعالى أمهر فاطمة عليها السلام ربع الدّنيا، فربعها لها، وأمهرها الجنّة والنّار، تدخل أعداءها النّار، وتدخل أولياءها الجنّة، وهي الصدّيقة الكبرى، وعلى معرفتها دارت القرون الأولى).

الأمالي للشيخ محمّد بن الحسن الطوسي:668/مجلس يوم الجمعة:6/36، عنه البحار:105/43/ب19/5. ومجمع النورين للشيخ أبي الحسن المرندي:34.

ولكي نقطع الطريق على من يحاول إيجاد تخريجات فاقعة أو إنشاء أرضيّة مشتركة للجمع بين هذه الرواية (رواية أمالي الطوسي) ورواية فرات الكوفي، نبدأ بشرح فقرات رواية الأمالي بالصورة التالية:

ألف- معنى القرون. (القرن) لغة: الأمّة من النّاس، والقرن من النّاس أهل زمان واحد. ويقال عمر كلّ قرن ستون أو سبعون أو ثمانون سنة. وسمّوا قرناً لأنّهم حدّ الزمان الذي هم فيه.

راجع: العين للشيخ الخليل بن أحمد الفراهيدي:141/5/حرف القاف/باب القاف والراء والنون معهما/مادة: قرن، الصحاح للشيخ إسماعيل بن حمّاد الجوهري:2180/6/فصل القاف/مادة: قرن، الفروق اللغوية للشيخ أبي هلال العسكري:427/حرف القاف/1716، معجم المقاييس اللغوية للشيخ أحمد بن فارس بن زكريا:77/5/كتاب القاف/مادة: قرن. وأشار إلى ذلك الشيخ يعقوب بن إسحاق الأحوازي المعروف بابن السكيت في ترتيب إصلاح المنطق:305/حرف القاف/مادة: القرن.

وفي بعض تفاسير أهل الجمهور ورد أنّ القرن أربعون أو خمسون أو مائة سنة.

راجع: الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور للشيخ جلال الدين السيوطي:5/71-72، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشيخ محمّد بن عليّ الشوكاني:4/78 ومال إلى عدم صحّتها.

يقول الشيخ محمّد باقر الكجوري: «يطلق القرن: على كلّ ثمانين سنة أو سبعين أو ثلاثين أو أهل كلّ زمان، أي: مَن يعيشون في جيل واحد وفي فترة زمانيّة واحدة ويبعث فيهم نبيّ، أو أنّه غالب عمر النّاس، أي: المعدّل الذي يعمّر فيه الإنسان.

قيل: إذا ذهب القرن الذي أنت فيه وخُلِّفت في قرن فأنت غريب.

وقال تعالى: ﴿فما بال القرون الأُولى﴾ سورة طه51، أي: سعادة الأُمم السابقة وشقاوتها».

الخصائص الفاطميّة:1/223/الخصيصة:14.

وكتب ألشيخ أبو الحسن المرنديّ التالي: «أقول أنّ المراد من (القرون) هي قرون جميع الأنبياء والأوصياء وأممهم من آدم فمن دونه، حتّى نفس خاتم الأنبياء صلّى الله عليهم أجمعين».

مجمع النورين وملتقى البحرين:40.

ونقل الشيخ محمّد فاضل المسعودي عن المحقّق البارع أبي الحسن النجفي- والظاهر أنّه يتبنّى ما قاله- أنّه قال ما نصّه: «إنّ المراد من القرون هي قرون جميع الأنبياء والأوصياء وأمم من آدم فمن دونه حتّى نفس خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم أجمعين».

الأسرار الفاطميّة:82.

والبعض يظنّ أنّ المراد من (القرون الأولى) أي: إنّه إشارة إلى الأنبياء السابقين.

راجع: محاضرة السيّد منير الخبّاز وإجابة للشيخ محمّد السند على مواقع التواصل الاجتماعي.

ويحتمل الشيخ مسلم الداروي أنّ يكون المراد بـ: (القرون الأولى) الأمم السابقة على أمّة النبيّ الأكرم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

راجع: مؤسّسة الإمام الرضا عليه السلام للبحث والتحقيق العلمي/الأسئلة العقائدية/سؤال رقم:161.

أقول: ليس المراد من عبارة (على معرفتها دارت القرن الأولى) كلّ فرد يعيش فيه، لأنّ في أتباع الرسل منافقين وفي غير الأتباع الكثير من الكافرين.

وأودّ التنويه إلى أنّ العبارة لا تعني عجز القرون عن معرفتها سلام الله عليها كما يزعم بعض الفضلاء، ولا شكّ أنّ من يصرّ على ذلك يوقع نفسه في مخالفات لغوية.

باء- معنى دارت. (دار) لغة: دار الشيء يدور دوّراً ودوراناً: إذا طاف حول الشيء.

راجع: صحاح الجوهري:660/2/باب الراء/فصل الدال/مادة: دور، مجمع البحرين للشيخ فخر الدّين الطريحي:304/3/كتاب الراء/باب ما أوّله الدال/مادة: دور.

ويقال: دارت عليه رحى الموت: أي: نزل به الموت.

راجع: مجمع البحرين:179/1/كتاب الألف/باب ما أوله الراء/مادة: رحا.

وفي المثل يقال: دارت بهم أو عليهم الدوائر، ودارت عليهم رحى الحرب، أي: نشبت واشتدّت.

وقد جاء في الحديث: (تدور رحى الإسلام من مهاجرك، فتلبث بذلك عشراً، ثمّ تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك).

مقدّمة الصحيفة السّجاديّة للإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام.

وفي حديث آخر: (تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين).

المسند للشيخ أحمد بن حنبل:390/1.

وصحّ بالأحاديث المتضافرة أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: (عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه حيثما دار).

راجع: شرح نهج البلاغة للشيخ عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبي الحديد المعتزلي:88/9، مرآة العقول:332/5، الغدير في الكتاب والسنّة والأدب للشيخ عبد الحسين الأميني:177/3-180، مستدرك سفينة البحار:189/8، والسنّة في الشريعة الإسلاميّة للسيّد محمّد تقي الحكيم:63.

وفي معتبر ابن أبي يعفور قال : (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سادة النبيين والمرسلين خمسة وهم أولو العزم من الرسل وعليهم دارت الرحى: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء).

الكافي:175/1/باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمّة/3، مرآة العقول:286/2، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام:157/7.

وتعقبّه المازندراني بالتالي: «قوله : (وعليهم دارت الرَّحى) يقال: دارت رحى الحرب إذا قامت على ساقها، وأصل الرَّحى هي الّتي يطحّن بها، والمعنى: يدور عليهم الإسلام ويمتدُّ قيام أمره على سنن الاستقامة والبعد من أحداث الظلمة الكفرة، فهم بمنزلة القطب من الرَّحى».

شرح الكافي:113/5.

ومن جانبه أوضح المجلسي ما يلي: «(عليهم دارت الرحى) أي: رحا النبوّة والرسالة والشريعة والدّين، وسائر الأنبياء تابعون لهم فهم بمنزلة القطب للرحى».

مرآة العقول:286/2.

حسناً، بعد أن تناولنا كلمتي (القرون) و (دارت) واتّضح نوعاً ما معناها وبان لنا مغزاها أضع تحت نظركم عبائر الشرّاح ليكون أَدْعى للقبول عندكم:

قال الشيخ أبو الحسن المرنديّ: «يعني ما بعث الله عزّ وجلّ أحداً من الأنبياء والأوصياء حتّى أقرّوا بفضل الصدّيقة الكبرى ومحبّتها، ويؤيّده ما ذكره السيّد- يقصد هاشم البحراني- قدس سره في مدينة المعاجز عنه عليه السلام: (ما تكاملت النبوّة لنبيّ حتّى أقرّ بفضلها ومحبّتها)، ولأنّ وقوع النكرة في سياق النفي يفيد العموم».

مجمع النورين:40. ونحوه في الأسرار الفاطميّة:82.

وسجّل الأستاذ حيدر حبّ الله ما يلي: «وفسّر هذا الحديث بأنّ الأمم السابقة كانت تعرف الزهراء عليها السلام وكانت تفتخر بها وتتوسّل بها، وأنّه ما تكاملت نبوّة نبيّ إلّا بها وبالإيمان بها ومعرفة حقّها، كما فسّر ذلك بما يرتبط بالولاية التكوينية وأنّ عليها سلام الله عليها مدار الوجود منذ بدئه، وغير ذلك».

راجع: إجابة على موقعه عن سؤال بهذا الخصوص.

وأجاب آخرون عن معنى (على معرفتها دارت القرون الأولى) بمضمون: أنّ جميع الأنبياء والمرسلين أمروا أممهم بمعرفة الصدّيقة الكبرى، وكلّفوهم عرفان المقامات الفاطميّة ومنزلتها.

هذا ما قاله الشيخ محمّد باقر الكجوري، والسيّد كمال الحيدري، والسيّد أحمد الشيرازي، وغيرهم. وتجد إجابة بعضهم على صفحات الشبكة العنكبوتيّة.

بدوره دوّن الشيخ الكجوري التالي: «أنّ جميع الأنبياء والمرسلين أمروا أممهم بمعرفة الصدّيقة الكبرى، وكلّفوهم عرفان المقامات الفاطميّة، أي: إنّ أحكام جميع الأمم وتكاليفهم الشرعيّة منوطة بمعرفة الزهراء عليها السلام.

ثمّ يواصل الكجوري قوله: وبعبارة واضحة: إنّ السّعادة والشقاء لأهل كلّ زمان تدور مدار (التولّي والتبرّي) لجناب الصدّيقة الكبرى، وإنّ دين الأنبياء جميعاً منوط بحبّها».

الخصائص الفاطميّة:1/223-225/الخصيصة:14.

ولعلّ الذي يدعم هذه العبائر ما جاء في الخبر الضعيف أنّ مولاتنا الزهراء البتول كانت مفترضة الطاعة كالأئمّة عليها وعليهم صلوات الجليل، فعن أبي بصير عن الإمام أبي جعفر عليه السلام: (ولقد كانت عليها السلام مفروضة الطّاعة على جميع من خلق الله من الجنّ والإنس والطير والوحوش والأنبياء والملائكة).

مستدرك سفينة البحار:208/6.

المقطع الخامس: قال الله تقدّست أسماؤه وتباركت آلاؤه: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾.

أمام هذا المقطع نواجه السؤال التالي: من المعني بقوله تبارك وتعالى: ﴿وما أدراك﴾؟

والإجابة عن ذلك تتلخّص بنقطتين:

النقطة الأوّلى: إذا كان المعني به النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فإنّ ذلك قد يشكّل علامة استفهام حول النصوص المتضمّنة بأنّهم عليهم السلام خُلِقوا أشباحاً قبل خلق نبيّ الله آدم عليه السلام وذريته، وأنّ الله عزّ وجلّ حملّهم العلم والدّين.

راجع: كفاية الأثر للشيخ الخزاز القمّي:152، تأويل الآيات:1/398/27، المحتضر للشيخ حسن الحلي:202/249، البحار:27/131/ب4/122 و:35/28/ب1/24 و:36/73/ب37/24، الكافي:1/133/كتاب التوحيد/باب العرش والكرسي/6.

نعم، من يذهب إلى أنّ المعصومين صلوات ربّي وسلامه عليهم أجمعين يقبض عنهم تارة بعض العلم ويبسط لهم تارة بعض العلم، فلا إشكال حينئذٍ في البين.

النقطة الثانية: إذا كان المعنى هو أنّه ورد بصيغة إيّاك أعني واسمعي يا جارة، وأنّ ذلك خطاب للمؤمنين لكي يحرّك فيهم أمواج المعرفة عبر وسائل العلم والوعي ولتنفتح لهم أسرار ليلة القدر بالتمعّن والتدقيق فيها كما يرى ذلك صاحب الأسرار الفاطميّة.

الأسرار الفاطمية:369.

فهذا يوحي، كما قلنا فيما سبق، إمكانية معرفة سيّدتنا الحوراء سلام الله عليها.

لكن يبقى هناك أمر مشكل، فبحسب الظاهر أنّ هذه الجملة القرآنيّة ﴿وما أدراك ما ليلة القَدْر﴾ يصعب جعل مفهومها متناسقاً مع التأويل السابق تأويل (الليلة) بمولاتنا عليها السلام، وتأويل (القَدْر) بالبارئ جلّت قدرته، فلاحظ.

المقطع السادس: قوله عليه السلام: ﴿خير من ألف شهر﴾ (يعني خير من ألف مؤمن).

هذا المعنى غير تامّ، ولا يمكن استساغته جزماً، حتّى وإن جعلناه من باب التأويل أو التطبيق، وذلك لسببين:

الأوّل: بحسب المعنى التأويلي فإنّه لا يقتصر مقايسة مقام سيّدتنا الزهراء عليها السلام وفضلها وخيريّتها بهذا العدد الإيماني ولا أضعاف أضعافه فحسب، بل لا يصحّ إجراء المقايسة أصلاً، لأنّ النبيّ محمّد وآل محمّد صلوات الله وسلامه عليهم لا يُقاس بهم أحد من النّاس.

أنظر: نهج البلاغة:1/30/الخطبة:2، الرياض النظرة في مناقب العشرة للشيخ محبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري:3/180/ف7، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل للشيخ عبيد الله بن عبد الله الحسكاني:2/271/904، تأويل الآيات الظاهرة:2/618/5، البحار:24/274/ب59/63، ينابيع المودّة لذوي القربى:2/117/ب334/56، أهل البيت في الكتاب والسنّة للشيخ محمّد الريشهري:168-170/القسم الثالث/الفصل الأول.

وبصرف النظر عن ذلك، ما هو الرابط بين الشهر والمؤمنين ووجه المناسبة؟

الثاني: بحسب المعنى الظاهري فإنّ المراد بليلة القدر، كما مرّ بنا، هو الليلة التي تقع في العشر الأواخر من شهر رمضان وتفرق فيها الأمور، فكيف تكون جملة (خير من ألف مؤمن) من تطبيقات تلك الليلة المباركة ومن مصاديقها؟

وما هي علاقة خيريّة الليلة بالأعداد البشريّة المؤمنة؟

أليس التقابل يقتضي أن يكون الحديث عن الأيّام والشهور ليتناسب المعنى؟

بل هذا المقطع حقيقة لا يتمازج مع مضمون نصوص أخرى إن لم نقل إنّه يتباين معها، وإليكم بعضها:

منها: ما رويّ عن أبي بصير عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: (قوله عزّ وجلّ ﴿خير من ألف شهر﴾ هو سلطان بني أميّة، وقال: ليلة من إمام عدل خير من ألف شهر ملك بني أميّة. وقال: ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم﴾ أي: من عند ربّهم على محمّد وآل محمّد بكلّ أمر سلام).

تأويل الآيات:2/871-2/818، تفسير البرهان:5/712-23/713 و26.

ومنها: ما رويّ عن علي بن عيسى القمّاط عن عمّه عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: (أُريَ رسول الله صلّى الله عليه وآله [في منامه] بني أميّة يصعدون على منبره من بعده ويضلّون النّاس عن الصراط القهقرى، فأصبح [كئيبا] حزيناً، قال: فهبط عليه جبرئيل عليه السلام...وأنزل عليه ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ جعل الله عزّ وجلّ ليلة القدر لنبيه صلّى الله عليه وآله خيراً من ألف شهر ملك بني أميّة).

تفسير البرهان:5/712/20.

ومنها: ما رويّ عن ابن أبي عمير عن غير واحد عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، [قالوا]: (قال له بعض أصحابنا، ولا أعلمه إلّا سعيد السمان: كيف تكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر؟ قال: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر).

تفسير البرهان:5/710/14.

ومنها: ما رويّ عن حمران أنّه سأل الإمام الباقر عليه السلام: (قلت: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ أيّ شيء عنى بذلك؟ فقال: العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير، خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، ولو لا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين، ما بلغوا، ولكنّ الله يضاعف لهم الحسنات).

تفسير البرهان:2/711/16.

المقطع السابع: قوله عليه السلام: (وهي أُمّ المؤمنين).

لم يرد في النصوص التامّة التي يعتمد عليها ويركن إليها أنّها عليها السلام أمّ المؤمنين أو أنّها كُنّيت بهذه الكنية، كما أنّ من المعلوم أنّ أمّهات المؤمنين غيرها صلوات ربّي وسلامه عليها.

نعم، ذكر أنّها عليها السلام كانت تُكنّى بأمّ أبيها.

راجع: مقاتل الطالبيّين للمؤرّخ أبي الفرج عليّ بن الحسين الأصفهاني:29، تاج المواليد للشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي:20، مناقب آل أبي طالب للشيخ محمّد بن عليّ بن شهرآشوب المازندراني:140/1.

المقطع الثامن: قوله عليه السلام: ﴿تنزّل الملائكة﴾ والملائكة المؤمنون.

لا جرم أنّ هذا المعنى لا ينسجم مع الأخبار التي سنتطرّق إليها بعد قليل، بل

إنّ هذا المقطع من الآية ﴿تنزّل الملائكة﴾ فُسرّ في بعض النصوص الآتية بصورة مغايرة.

ثمّ إنّنا نلحظ في متن الخبر غرابة ونتلمّس نكارة، فتارة يأوّل كلمة (شهر) بالمؤمنين، وتارة أُخرى يأوّل كلمة (الملائكة) بالمؤمنين الذين يملكون علم آل محمّد صلوات الله عليه وعليهم.

ومن ذلك المشهد يعترضنا هنا السؤال الآتي وهو: كيف ينزل المؤمنون الذين يملكون علم آل محمّد بصورة مستمرّة طوال فترات تنوجد فيها ليلة القدر حتّى يظهر مولانا القائم عليه السلام؟!

والشيء المحيّر حقّاً أنّك لو قمت بمراجعة النصوص سترى أنّها تؤكّد على أنّ هذا النزول سيستمرّ إلى قُبيل يوم القيامة.

أنظر: الكافي:245/1-251/باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر/ح3 و7 و8، تأويل الآيات:819/2-825/ح5 و6 و7 و9 و10 و14، تفسير البرهان:704/5-714/ح3 و4 و8 و9 و16 و17 و24 و29.

قال السيّد شرف الدّين الأسترآبادي: «فلا بدّ من رجل تنزل عليه الملائكة والروح فيها بالأمر المحتوم في ليلة القدر في كلّ سنة، ولو لم يكن كذلك لم يكن بكلّ أمر. ففي زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله كان هو المُنزّل عليه، ومن بعده على أوصيائه أوّلهم أمير المؤمنين وآخرهم القائم عليهم السلام، وهو المُنزّل عليه إلى يوم القيامة، لأنّ الأرض لا تخلو من حجّة الله عليها».

تأويل الآيات:820/2.

وأضاف في موضع آخر هذه الجملة: «اعلم أنّ حاصل هذا التأويل، أنّ ليلة القدر باقية إلى يوم القيامة، لأنّ الأرض لا تخلو من حجّة الله سبحانه وتعالى عليها، تنزل فيها عليه الملائكة والروح من عند ربّهم من كلّ أمر إلى الليلة الآتية في السنة المقبلة، من لدن آدم إلى أن بعث الله سبحانه نبيّه صلّى الله عليه وآله، فكان هو الحجّة المنزلة عليه، ثمّ من بعده أمير المؤمنين، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ الأئمّة واحد بعد واحد إلى أن انتهت الحجّة إلى القائم صلوات الله عليهم أجمعين صلاة باقية إلى يوم الدّين».

تأويل الآيات:828/2.

إذا اتّضح ذلك نقول: أنّ تأويل الشيخ المجلسي لكلمة (المؤمنين) بأهل البيت عليهم السلام ليس في محلّه، لأنّ من يمتلكون علم آل محمّد شيعتهم ومواليهم، فهم الذين يقتبسون علم آل محمّد من جهته الصادقة ومصادره ومنابعه الموثوقة.

راجع: البحار:99/25.

علي أيّ حال حان الوقت لكي أنقل إليكم حزمة مقتطفة من الأخبار التي تغاير المقطع المذكور والمطلب المسطور في رواية تفسير فرات الكوفي:

منها: ما رويّ عن الإمام الباقر عليه السلام- في حديث نأخذ منه موضع الحاجة- قال: (أنّه ليس من يوم ولا ليلة إلّا وجميع الجنّ والشياطين تزور أئمّة الضلالة، ويزور إمام الهدى- في نسخة وتزور أئمّة الهدى- عددهم من الملائكة، حتّى إذا أتت ليلة القدر فيهبط فيها من الملائكة إلى ولي الأمر...إنّ الله عزّ وجلّ أعظم من أن ينزل الأمر مع الروح والملائكة إلى كافر فاسق).

الكافي:253/1/باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر/9، تفسير البرهان:10/709/5.

ومنها: ما رويّ محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام، قال: (سألته عن علامة ليلة القدر؟ فقال: علامتها أن تطيب ريحها، وإن كانت في برد دفئت، وإن كانت في حرّ بردت وطابت. قال: وسئل عن ليلة القدر، فقال: تنزل فيها الملائكة والكتبة إلى السّماء الدّنيا، فيكتبون ما يكون في أمر السنة وما يصيب العباد، وأمره عنده موقوف [له]، وفيه المشيئة فيقدّم [منه] ما يشاء ويؤخّر منه ما يشاء، ويمحو ويثبت وعنده أمّ الكتاب).

تفسير البرهان:13/710/5.

ومنها: ما رويّ عن عبد الله بن عجلان السكوني قال: (سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: بيت عليّ وفاطمة من حجرة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وسقف بيتهم عرش ربّ العالمين، وفي قعر بيوتهم فرجة مكشوطة إلى العرش معراج الوحي، والملائكة تنزّل عليهم بالوحي صباحاً ومساءً...وما من بيت من بيوت الأئمّة منّا إلّا وفيه معراج الملائكة لقول الله عزّ وجلّ: ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم﴾).

تأويل الآيات:2/818-819/4، تفسير البرهان:5/714/28. ومثله في البحار:25/97/ب71/3.

ومنها: ما رويّ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (كان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا تلا: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾ يقول: صدق الله، أنزل [الله] القرآن في ليلة القدر، ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا أدري، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ ليس فيها ليلة القدر. وقال الله لرسوله صلّى الله عليه وآله: هل تدري لم هي خير من ألف شهر؟ قال: لا، قال: لأنّها ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر﴾ وإذا أذن الله بشيء فقد رضيه، ﴿سلام هي حتّى مطلع الفجر﴾ يقول: تسلّم عليك يا محمّد ملائكتي وروحي بسلامي من أوّل ما يهبطون إلى مطلع الفجر).

تأويل الآيات:2/822/11، تفسير البرهان:5/705/5. ونحوه في الكافي:1/247/باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر/4.

ومنها: ما رويّ عن ابن عبّاس عن النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم- في حديث- قال: (إذا كانت ليلة القدر تنزل الملائكة، الذين هم سكّان سدرة المنتهى وفيهم جبرئيل، ومعهم ألوية).

تأويل الآيات:2/816/1، تفسير البرهان:5/714/30.

وكذا يشير إلى ذلك المرويّ عن الإمام أبي جعفر عليه السلام- في حديث- قال: (ولقد قضى أن يكون في كلّ سنة ليلة يهبط فيها بتفسير الأمور إلى مثلها من السنة المقبلة، من جحد ذلك فقد ردّ على الله عزّ وجلّ علمه).

الكافي:1/250/باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر/7، تأويل الآيات:2/825/14.

المقطع التاسع: قال عليه السلام: ﴿والروح فيها﴾ (والروح القدس هي فاطمة).

هذا الوصف لسيّدة نساء العالمين بأنّها عليها السلام هي روح القدس لا يحتاج منّا إلى استرسال وتطويل ومطّ الكلام وتكثير القول، لأنّه مخالف للروايات المستفيضة الواضحة، ولا يستقيم مع الروايات المعتبرة التي وصفته بأنّه خلق يُلهم المعصومين العلم، أو ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل عليهما السلام يسدّد المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم.

راجع: المحاسن:315/2/كتاب العلل/32، بصائر الدرجات:365/1-376/ب16-ب18، الكافي:273/1-/كتاب الحجّة/باب الروح التي يسدّد الله بها الأئمّة عليهم السلام/1-4، البحار:25/47-53 و58-70/ب3، روضة المتّقين:470/5 و:209/12-210، مرآة العقول:169/3-172، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام:314/4-316.

ولو تنزّلنا وقبلنا حمله على المعنى التأويلي ورضينا بما فيه محاذير، فإنّه يفتقر إلى المستند الذي يحسن التعكّز عليه والاحتماء به.

عموماً في نهاية مناقشة الرواية، أقصد رواية تفسير فرات الكوفي، يبدو لي أنّ المجلسي قد لاحظ اضطراب متن الرواية وارتباك فقراته، فلذا قام باختصاره في بحاره.

راجع: بحار الأنوار:65/43/ب58/3.

ونحن إن قبلنا بعض معانيها فحتماً لا نقبل كلّ معانيها ولا نستمرئ المفردات المضطربة والملحونة ولا نحتضن الفقرات الفاسدة التي تلاعب بها العابثون.

والذي نعتقده في الرواية المناقشة على أقلّ تقدير أنّها ينطبق عليها الخبر المروي عن الإمام الصادق عليه السلام وكلامه في حديثه مع المفضّل: (وأخبرك أنّ هذا القول كان من قوم سمعوا ما لم يعقلوه عن أهله ولم يُعطوا فهم ذلك).

بصائر الدرجات:547/ب1/21.

وليعلم الأخوة الفضلاء والأخوات الفضليات أو الفاضلات أنّ الذي قادني إلى هذه المناقشة هو تلك الملاحظات والمعارضات. وفي عقيدتي أنّ الذي يساعد على إذكاء الفكرة وترسيخ النظرة هو البحث الموضوعي ومناقشة الأنظار والآراء بإنصاف وطريقة بعيدة عن التشنّج وبنفس علمي.

وقد جاء في معتبر جميل بن درّاج عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: (أعربوا حديثنا فإنّا قوم فصحاء).

الكافي:1/52/كتاب فضل العلم/باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسّك بالكتب/13، مرآة العقول:1/183، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام:3/78. ومثله في الرعاية في علم الدراية للشيخ زين الدين بن نور الدين علي العاملي:187، وفيه: أعربوا كلامنا بدل أعربوا حديثنا.

ختام به إتمام

بودّي في ختام المبحث لفت أنظار القرّاء الكرام إلى أنّ هناك أخباراً ترتبط بموضوعنا غير ثابتة للمعصوم شاع تناقلها من على فوق المنابر الحسينيّة وكثر تردّدها على ألسن روّاد المحافل الدينيّة، منها: نحن حجج الله على الخلق، وجدّتنا فاطمة حجّة علينا.

وهذا الخبر من الأخبار الموضوعة وتمّ نشره وتداولها في القرن العشرين. والغريب أنّ الشيخ الفاضل محمّد فاضل المسعودي كرّر نسبته إلى الإمام العسكري عليه السلام في عدّة مواضع من كتابه الأسرار الفاطمية.

راجع: الأسرار الفاطميّة:37 و53 و154 و265 و410.

وهكذا نسبه إلى الإمام العسكري عليه السلام غفلة الشيخ محمّد السند في كتابه مقامات الزهراء.

راجع: مقامات فاطمة الزهراء عليها السلام في الكتاب والسنّة:20.

والأنكى من ذلك أنّ بعض الفضلاء المعاصرين يصرّ على نسبته إلى المعصوم رغم تنبيهنا له بأنّ الخبر موضوع، ويدلّس على مراجعيه في شأنّه ويموّه في أمره، فلا يرشدهم إلى منبعه الأصلي ولا يصارحهم بأنّه مخترع.

ومنها: اللّهم إنّي أسالك بحقّ فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسرّ المستودع فيها.

وقد نبّه الشيخ محمّد فاضل المسعودي، جزاه الله خيراً، القرّاء إلى أنّ هذا الدعاء ليس للمعصوم.

راجع: الأسرار الفاطميّة:25.

وثمّة أخبار أُخر غير تلك يستدلّ البعض بها مع أنّها لا ترقى إلى مستوى الدليل ولا تستحقّ تدوينها، قد أعرضت عن تناولها فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً.

كما أرجو من الأخوة الفضلاء (الخطباء والمؤلّفين) الذين وقعوا في اشتباهات نقليّة والتباسات خبريّة، القيام بتنبيه القرّاء والمستمعين إلى

موضع خطأهم غير المقصود، وتذكير الموالين بأنّ المعلومة غذاء والكلمة مسؤوليّة، وينبغي علينا تحرّي الوثاقة فيما نبثّه للأنام وتقصّي الاطمئنان إلى ما نحدّث به الملأ العام، فقد روي عن خثيمة بن عبد الرحمن قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من تحدّث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً، فإن صدق علينا فإنّما يصدق على الله وعلى رسوله، وإن كذّب علينا فإنّما يكذب على الله وعلى رسوله، لأنّا إذا حدّثنا لا نقول قال فلان وقال فلان، وإنّما نقول قال الله وقال رسوله).

تأويل الآيات الظاهرة:30/521/2، تفسير البرهان:9/723/4.

وبعد هذا، نتمنى من الخطباء وأهل المنابر- وهي أمنية قديمة نسعى لترويجها والتثقيف عليها- تخصيص بعض الدقائق لمستمعيهم وحضّارهم بعد انتهاء محاضراتهم، لأجل الاستماع إلى ملاحظاتهم وإشكالاتهم وأخذها بنظر الاعتبار والإجابة عن أسئلتهم.

نسأل الله عزّ وجلّ التوفيق لهم ولنا ولأهل ملّة الإسلام ومن يطلب طريق الحقّ من الأنام، والثبات على منهجه القويم وصراطه المستقيم.

وأتقدّم بالشكر للأخوين العزيزين الدكتور شامل آل مباركة وحسين الأسدي لملاحظاتهما ومساعدتهما.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد الأمين وعلى آله الميامين.

جعفر صادق الحسيني البصري